

إن عادت الحياة...

للكاتب الفرنسي هنري بارناياس
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تعريف بالقصة

هنري بارناياس ، كاتب قصص على نسق جي دي موباسان قليله يعنى عن الكثير ، وكثيره رائع . جعل قصته (إن عادت الحياة ...) على لسان موظف سياسى ، يحمل حقيبة دبلوماسية بين باريس ومرسيليا . وخطة التقى فى القطار بصديق قديم هو القصاص الشاعر كليان ديربال الذى كان شبه مجنون بحالة رثة . ولأنه على غناه وتلؤلؤ مواهبه يعيش عبثة الفلاحة ، فاستدرجه حتى قس عليه سبب قنوطه من الدنيا وزعده فى الحب وسعادته الموهومة . وكانت القصة تتفصل وتتصل تبعاً لحركة القطار وبلوغه محطات الطريق وهو ابتكار فى فن الرواية . فإن القصة ليست سوى قطعة من حياتنا تلازمتنا ونعيشها وتأخذ منا وتعطينا كالسفر نفسه الذى يتقلنا ويطوي المكان والزمان والأعمار معاً . أما اسم المرأة فهو لور ، ويكتب أحياناً لورا وهكذا كتبناه على صورتين .

إياك واحذر من الاعتزاز بمواهبك كما كنت أفعل . فقد كنت أفاخر بما يسمونه قوة الذاكرة ! وأزعم أنها صديقة وفية لا تخوننى أبداً . وما زلت كذلك أغبط حيناً وأحسد أحياناً على تلك النعمة المؤاتية سواء أكان ذلك ذكاء أو فطنة . تقول عقلاً واعياً أو عقلاً باطنياً . قل ماشئت ، ولكن ثق يا صاحبي أنني أعتقد أن فى الكائن الانساني سرّاً كامناً ، بل قوة خفية ... سمّتها شيطانة أو ملكة ... كما شئت ... فهنا السر (وأشار الأستاذ بيرون إلى رأسه) الذى يعجز العلماء عن تمليله ومعرفة كنهه . كنت مسافراً من مرسيليا إلى باريس فى قطار الليل السريع فى

من ذلك النوع المتبرم بالحياة . كنت قرأت كتابه « من الأعماق » وهو حافل بأنفس الخواطر والأفكار عن خفايا الضمير وخبايا النفس من الشهوات والوجدانات والمواطف . وكان ديربال يأكل ويشرب وينام ويصحو بثيابه كاملة ، ويأبى أن يغتسل أو يحلق ، ويقول إن الأسد والفيل والنمر لا تفعل شيئاً من ذلك فلا حاجة به إلى الزينة . فتصور هيئة ذلك الإنسان المتوحش الذى وهبته الطبيعة تلك العبقرية النادرة وهو ينشدك شعره فى فلسفة الحب وهو حافل بالبديع الرائع من شذرات الغزل الرقيق والنسيب العذب ، ولو رأته فتاة أو كاعب لفرت من وجهه فرعاً فسألت رفيق السفر : كيف صار إلى تلك الثورة وذلك القلق حتى أمسى متوقداً معذباً وهو الذى أفاض نفثات السحر على آفة الحب فكساها أجمل صبغة وأحسن رواء ، واجتنى من شجرة

الأحزان والأشجان ثمار الفصاحة غضة يانعة . فقال لى : خيانة المرأة . خيانة المرأة هى التى ساقته إلى قلبى الحزن الدائم والشقاء المقيم ، فأصبح قلبى مجال الشك والريبة وموطن التهمة وسوء الظن

عمل هام ينتظرني ذووه على أحر من الجمر ... نعم عمل سياسى سيأتى خبره فى سياق حديثنا . وكان فى صحبتى موسيو ديربال الكاتب الشهير الذى قضى نجه بفاجعة ألمية ... كان قصاصاً وشاعراً ولكنه

فسألته : أَلَا أن امرأة واحدة خانتك ، جعلت الجنس الأثوى كله فريستك وضحيتك فترت على نشاء العالم ثورة حنق وحققد عنيفة هوجاء وشذنت على النوع الإنساني غارة شعواء ؟

فتشهد ديربال من أعماق قلبه ووجدنى بعينين قويتين ثم قال : لقد ثبت عندى أنك لم تعرف خيانة النساء ولم تذق صرارها ولم تكتو بنارها . إنك يا سيدي لا تعرف حقيقة قلب المرأة ... وأملك لا تزال تظنها بهجة الدنيا وزينة الحياة وقسيمة الرجل وأداة سعادته ووسيلة هنائه . ومن العجب أن معظم الرجال يرون رأيك ، فليتهم يعرفون بعض ماعرفت ، إذن لتمنوا انقراض جنس المرأة انقراضاً لا رجوع بعده ، وإذن لساد الأمن والسلام في الدنيا وانفسحت ظلال النعيم في العالم ، وكف الناس عن التدافع والتنازع والتحاسد والتحاقد ، ولم تلق على ظهرها وغداً ولا شريراً ولا أثماً ولا خبيثاً ؛ إذ يصبح الرجل لا يرى لنفسه أدنى ثمرة في التزام الرذائل والخباثات وارتكاب الإثم والجرم واقتراف الشر والنكر . هذا لا شك ما يحصل لو أن الطبيعة في ساعة من ساعات تعقلها قضت بطعنة واحدة على بنات حواء كافة وأراحت الرجال من الجنس « اللطيف » . فابتسمت ثم ضحكت ثم ساورتني المخاوف فقد دخل في روعى أن بالؤلف العظيم لا شك جنسة لا تعرف عنها ولا يفهم سرها . ولعله كان أصيب إثر داء أو لوعة بأشنع أنواع الجنون ، أعنى ذلك الذى يكتمى ثوب العقل ويلبس زى الحجة والبرهان ! ! وقد تمكن بعقله الجبار أن يجمل من الجنون جمالاً ، وينفض على أضاليل الأقوال والأعمال رونقاً سماوياً كالألاء

الشعاع ، بهر عيوننا ؛ تتلو صفحاته فتسكب عليها دموع الرقة والحنان . عند تمام الساعة الأولى بعد نصف الليل ، وقف القطار في محطة ديجون فدعوت الشاعر إلى شرب قدح من نبيذها المعتق ، فأبى إلا أن يشرب أقداحاً من الأبننت وهو ما يسميه « بالشیطان الأخضر » ويتغزل في لونه قبل أن يتجرعه . وفي الحق أن تلك الحمرة الخبيثة التى طالما ضللت العقول ، وحرقت الأكباد ، وأذابت المواهب النادرة ، كانت فى الأقداح كالزهر الدائب تجذب النظر وتغرى النفس بارتشافها . وقد لمح ديربال إعجابى وترددى ودهش من اكتفأى بالنبيذ ، وهو شراب برىء إذا قارنته بشيطانه الأخضر الآثم فقال لى : — إذا أرقنتى الأوجاع وسهدتنى الأوصاب ، خففت عني وطأة الداء بهذه السكؤوس المترعة ، فتحول ذهني عما أعانيه من الألم بذكرى أياي الخالية وحوادثي الماضية ، وما انطوت عليه من المواطن والحسرات والتلهفات ، وخواطر التوبة والندم فقلت له وأنا أنادمه : ترى يا صاحبي ديربال أى أدوار حياتك هي الآن أكثر تردداً على خاطرك فى ساعة الذكري ؟

فقال : لم يكن دور الشيبية وعصر الصبا ... كلا ! فلقد كانت ملذاته قليلة نادرة ، مشوبة في معظم الأحيان بمرارة الألم ، إنما خيانة المرأة هي التي تتردد على خاطري ، وفي أمثال هذه الساعة إذا خطرت ببالى الخواطر عن باريس وأحوالها وحوادث العصر ، وعن شهرتى وسمعتي ، أسرعت إلى طردها من رحى خاطري لتوفير نفسي على ما تألم له من الوجدانات والأشجان ، التي تحركها ذكرى خيانة المرأة

عطرها ... أتصدق ذلك ؟ إني قادر على استحضار
مباهجها وعبقها ، بعد أن ماتت واستقرت في جوف
الأرض الزدية في غابة قريبة من شاربونير ، تلك
القرية الجميلة التي قضيت فيها أسعد أيام حياتي في
حببتها قبل أن أكتشف خيانتها التي استجفت
عليها الموت . نعم الموت

— إذن ماتت تلك التي حملتك أعباء الحزن
والغيرة ، وأسخطتك على الدنيا ومن فيها ؟
— نعم . ماتت

— وإذن كنت سعيداً حقاً بحبها في حياتها ؟
— كنت سعيداً ... وأعترف أنني كنت أشعر
أحياناً وسط هذه اللذائذ الرائعة بضئولة أحلامي
وأوهامي وأحس أن أخطيت كانت نافهة حقيرة ،
لأنني كنت أرى في عينيها بريقاً يوشك أن يكون
لهباً . فأسألها فلا تحير جواباً . كانت اللعينة سكوتاً
آتيها الصمت الطويل والتفكير العميق ، فأسكرتها
ذات ليلة سكرأ شديداً فكانت تلك الشيطانة الانسية
ترداد صخراً وتنهباً ، وكلما أمعنت في إغراق حرصها
في كؤوس الخمر لأحل عقدة من لسانها أمعنت هي
في اليقظة ، كأن خمرة بورجونيا وشبانيا وكونياك^(١)
عصرت خصيصاً لتزيدها حذراً وتكتمها ، ولكنها
في آخر تلك الليلة بعد أن لا يبتها وداعيتها وعبثت
بشعرها ومناعم صدرها وهصرت عودها وعصرت
قلبا بما يقبل عليه كل عاشق مجنون في خلوة يحسبها
لفرط عطشه وداع الحب ونهاية الغرام ، وقد جلست
في الفراش عارية ، وكانت أشبه الأشياء بتمثال من

كان الشاعر ديربال يتكلم ، وأنا أتحرق على
قصته ، ولكنني لم أحاول قط أن أشعره بثلثي ، فقد
عمدت هذا النوع من الرجال يروغ منك ويعرض
عنك ، إذا أحس برغبتك في استطلاع دخيلة
نفسه ، بل إنه ليفقد وحيه ، ويطلق مصباح إلهامه
عامداً ، إذا ألزمته أن يروي عليك حديثه . يجب
أن تتركه يفيض من تلقاء نفسه ، وإن عواطفه
الجياشة لتطني على هدوئه وتلجته إلى الكلام ،
ليخفف عن قلبه وطأة الألم ، نخير سبيل لك أن
تركه ، وإن أردت الإيمان في إهاجة شعوره ،
فلتعرض عنه ، ولتظهرن عدم اكتراثك بالوقوف
على سره ، وإلا فإن كل إشارة أو عبارة تنم عن
اشتياق لحديثه تسد في نفسه مسالك القول ، ولذا
فقد تصنعت الإغضاء وتمعدت التجني ، وما زلت
سالكاً معه سبيل الدلال حتى عدنا إلى مركبة
القطار ، وقد بعثت فينا أقداح الخمر دفئاً وأحلاماً
عذبة ، فاضطجع ديربال على المقعد الطويل ، واتخذ
منه فراشاً وثيراً ، وأخرج من أعماق جيوبه المحتفية
وراء أردية لا عداد لها ، علبة مستديرة من الذهب
ذات غطاء لازوردي مزردان بصورة لم أتبينها في
بادي الأمر ، ثم نقر على غطاؤها ورفعها ، وتناول
على مهل بين أطراف بنانه مسحوقاً معطراً مما تحتويه
العلبة وقال : هذه علبة زينتها وقد نقشت عليها
صورتها ، صنعها لي كلود باسيه ، ووراء الصورة
مرآة صغيرة طالما نظرت إليها وهي تزين بما فيها
فانطبعت على صفحتها محاسنها ... أتصدق ذلك ؟
إنني عند ما أشتاق لرؤيتها ، أنظر إلى خيالها في
المرآة ... لأنه لا يزال باقياً ، فأراها !! ثم أنشق

(١) أسماء مقاطعات فرنسية اشتهرت بعصر الخمر

المروقة بأسمائها

نفسى التى كادت تسحقنى وتمحقنى ، حتى لقد اعتقدت أنك مرسل إلى من السماء ، فأبنى على الرغم مما وقع بي من كوارث الحياة ونكباتها ، لا تزال بى بقية من الايمان الذى نشأت عليه وأظلتنى شجرته

فقلت لها : عجيباً يا لور . لم أسمع منك قبل هذه اللحظة أنك كنت فى ضيق وألم وأنى خففتها
فقلت : أ كنت تريد أن تمتن على وتتطاول وتحاول إذلالى

قلت : من أين لك هذا الظن السيء ، ولم لم تحسبى أننى أشاركك الأسى وأترفق بك ، وأتلف فتخف لوعتنا معاً ، فأبنى أنا الآخر وليد شقوة وحليف آلام وأليف أحزان

فاطمأت المرأة قليلاً ووهمت أنها همت بالكلام الصريح ثم عادت فأطرقت ونظرت إلى الفراش بمبتين واسمعتين ثم صوبت نظرها فى وصعدت . وأنا أتحرق من الغيظ والصبر الطويل وأعجب لهذا السر الذى انطوت عليه أضلاعها وأنظر إلى فيها المعلق بأفقال الصمت القاتل ، ثم قالت : إسمع الآن يا كليمان ... لقد عرفت قبلك رجلاً ، صغاراً وكباراً ، فلم يسدوا حاجتى ولم ينقموا غلتى ولم يمنمنى حبه المستعمل من الاسترسال فى التمنى والتطلع والتخيل ؟ وكنت أحس فى نفسى فراغاً مجهول العلة ، لا يملأه شيء أبنة ، وأجد فى مهجتي تلهفاً على نوع آخر من السعادة لأفهم كنهه ولا أعرف ماهو ، ولكنى أشعر بشدة الحاجة إليه ... إلى أن التقيت بك فأحببتك وأخلصت لك وها أناذى أقسم لك ...

المرمر المشرب بلون العاج ، وقالت لى بعد برهة من وصالنا :

أى كليمان . كليمان ديربال ... ماذا تطلب منى ؟ أراك لا يهدأ روعك منذ عرفتنى ، ولا تستقر على حال . تدأب تسألنى عن الماضى ، كأنك لا تقنع بحاضرى الذى بين يديك . ما ذا عليك من الماضى وما جرى فيه . أظن أشد النساء بلاهة وزقفاً تنفضى إلى حببها بحقيقة حالها مهما برح بها هواه وسلمت له قيادها فقلت : هل بعد الذى نحن فيه سر يضان ، وهل وراء ما نرى وتندوق خفاء ؟

— وهل يحب الرجال أبدأ هتك الأستار ؟ هب معشوقة مفرطة فى السذاجة والصدق أفضت إلى عاشقها بكل ما رأت وعابت وتألّت أو فرحت وسعدت . أترأى يتقبل اعترافها بالتصديق والتسامح ؟ أم تراه يصاب بداء الغيرة التى تقتل الحب فى مهده يافعاً وفتياً . وإن هى صدقته وكان هو أول من أحببت ، فليس لها منه سوى الشك الباعث على اتهامها بما هو أشد من التصنع والكذب

فقلت لها : تضربين يا لور الحبيبة الأمثال بغيرك وتحومين حول لباب الحديث وخلصته وبأبى حذرلك أن تشكلى عن نفسك ؟

فقلت : لو أن وراء الكلام الذى تقصد إليه خيراً لك ولى ، وحقك ما ترددت لحظة فى تسليمك مفاتيح قلبى ، وجعلتك فى حل من مغاليقه . ولكن وأأسفاه ! ليس لدى ما أبوح به غير أنى امرأة شقية بائسة ، لقيتك فى وقت كنت فيه أحوج ما أكون للعناية والرحمة والمواساة والحب ، فأحببتنى وعنيت بى ورحتنى وواسيتنى ، وفرجت أزمة

دير بال ووقف بقامته المديدة وسط مقصورة القطار حتى كاد يصدم برأسه مصباح السقف الذي كان يشبه بطيخة من الزجاج الأزرق ، وصرخ :

« صادقة ! مخلصه ! ماذا تقول يا هذا ؟ أعلم هديت الرشد — أنه ليس من شر في العالم أو أذى أو ظلامه إلا في رقاب النساء أثمها ووزرها ، وعلى رؤوسهن تبعتهن ومسؤوليتهن . فقلت له : موسيو دير بال هدى روعك ! فقال : تكاد نفسي تطير شعاعاً كلما

التقيت بساذج مثلك ، لا يزال يحسن الظن بالجنس اللطيف . إن النساء أغلظ أكبداً من أن يتألمن شديد الألم أو يكثرن عظيم الاكتراث عند رؤية مناظر الشقاء ومشاهد البلاء والمحنة — فهن ينظرن إلى مأساة الحياة تمثل على مسارح الدنيا ولا يكاد يخفق لهن بالأسف جنان ، أو تسيل لهن من الرحمة والرثاء أحقان . ولكن دموعهن تهمر من أعينهن كالطرر إذا أردن أن يمثلن دوراً باهراً . على أنني لا أحب أن أفسد سياق القصة بهذا الاستطراد .. عند ما رأيت بكاءها وغضبها ، آمنت بصدقها ولكن هاتفاً كان يهتف بي من أعماق نفسي أنها كاذبة . كذلك كان شعوري ، وإنه لشعور صادق وهو ضربة لم تزل تميز أسرة دير بال منذ أقدم الأزمان ، وقد ورثها عن أبي الذي ورثها عن أبيه ، وما زلت في كل مسائل وشؤوني أأتمر بأوامر هذا الهاتف فأهتدي إلى الصواب وأوفق إلى أحسن المواقب . فقلبي حدثني بأن لورا خادعة خائنة ، ولكنني كنت جد حريص على إتمام سمادتي في تلك الليلة وأخشى أن تكدر صفوها بالعويل والنواح ، فدنوت منها وأخذت يدها بين راحتي وضمعتها إلى صدري وقلت لها :

فقلت لها : لورا ! لورا العزيرة المحببة ! بالله عليك لا تقسمي ، ليس من وراء القسم إلا القطيعة ، فإن المرأة المحبوبة لا تقدم على الإيمان إلا إذا أحسنت بديب السأم في قلبها فتريد أن تستوثق من دوام حبها ، وتمحو فكرة الشك من نفس عاشقها . وبدأت الخبيثة تبكي وتنتحب وتمرغ خديها على صدري ووجهي وتغرس أظفارها في لحمي حتى كادت تدمي بدني فقلت لها :

لورا ! لورا ! لا تؤذي عينيك الجميلتين بالبكاء ناشدتك الله ! غيضي مدامك وكفكفي عبراتك فوالله ما قصدت إلى إيلاامك أو إيذاء عواطفك ، ولا الفضول والتطفل على خصوصياتك وأسرارك ودخائلك وإن كنت أجدني مدفوعاً بأقوى عوامل الرغبة إلى الاهتمام بنفمك والسمي وراء مصلحتك

عندئذ نصبت المرأة قامتها وقذفتني بنظرة حشدة فيها كل ما تستطيعه من البغضاء والكراهية وقالت لي : أتحمسني من النساء اللواتي تستدرجنهن المنفعة ، إن قلبي أيها الرجل لا يباع ولا يشتري ، إنني أعز وأغلى من أن أكون سلعة ، إن الرجل الذي يستطيع أن يدفع نمني لم يخلقه الله بعد . إنك تسخر مني وتهزأ بي ، ولكن اعلم يا كلبان أن قلبي إن نازعني في هواك لأخلعنه من صدري لأسحقه تحت قدمي . ولم تكذبتم قولها حتى راعني وآلمني ما أبصرت من شدة اصفرارها وامتناع لونها ، فأبقت صدقها ولم يبق في ضميري أثر من شك في إخلاصها وصدق مقالها

فقلت لدير بال الذي كان يروي حديثه :

— ألم تكن صادقة بمد الذي وصفت ؟ فنهض

أنظري إلى واصلني لقولي ! سيأتي يوم تعلمين فيه أن سلوكي معك الآن لم يصدر عن رغبة في إسخطك أو إساءتك ، وغايتي أن أبذل كل ما في طاقتي لإسعادك ورد الأذى عن شخصك المحبوب ، أتوخي بذلك أن أكون أصدق صديق لك وأنصر نصير في حياتك . وكنت أحسب هذا القول اللين الذي صدر عن إخلاص وشفقة يصل إلى أعماق نفس تلك المرأة التي ألقت شباكها على قلبي ، ولكن لشد ما كانت دهشتي عند ما قالت : كلكم سواء . لا فرق بين الواحد والآخر ؛ كلام عذب ووعود ممسولة ، وقلوب سوداء . فقلت لها : كلكم ؟ كلنا ؟ إلى من تقصدين يا لور ؟

فقلت : أقصد إلى جنسكم جنس الرجال الخائنين ، فانكم تبدلون قصارى الجهد حتى تنالوا ما ربكم من المرأة التي تمخض عنها بكم ثم تمرضون عنها . فذهرت من قولها لأن الدهشة كانت أقل من أن تكفي في مثل هذا الموقف وقلت لها : هل أستحق منك هذا التأنيب وأنت التي قلت إنني ملأت فراغ قلبك ، وفرجت أزمة نفسك وبكيت منذ هنيئة حتى عميت وبللت صدرى بدموعك ؟

فقلت لسكليان ديربال الشاعر : كان عليك أن تكثفي بهذا القول منها ثم تقطعها إلى الأبد فإذا ينقصك بعد هذا البرهان على اعوجاجها وتقلبها ، أنت يا من تقول إن سريرتك تهديك ، وهاتفك يدلك . فلم يتحرك ديربال في مضجعه وقال :

— أنت رجل سياسي ناضج . ولكذك طفل في حياة الحب . لو أن الإنسان كان خالياً من المواطن لا بصر الأشياء كما هي وعلى حقائقها البحتة

المجردة ، ولكن الإنسان لا يتأمل الدنيا وأشياءها وشؤونها بقلب فارغ وفؤاد خال وشعور بارد جامد مثلكم أيها الساسة . ولكنه في معظم حالاته إن لم يكن في كلها ينظر إلى الدنيا وأشياءها بنفس مشغولة بم عاطفة واحدة أو أكثر ، فإذا نظر رجل مثلى إلى إنسان أو شيء من وراء عاطفة الحب متخذاً من هذه العاطفة منظراً ومجهرأ يتأمل به ذلك الشيء كان خليقاً ألا يصره على حقيقته وكنهه ، بل يراه مزخرفاً مُزَيَّنًا بشتى صفات الوهم والخيال ، ولكنها أحق في نظره من الحقيقة ، فهي وإن كانت في نظر غيره وهمية لكنها في نظره كائنة موجودة بل مرئية ملموسة

— إذن كنت يا موسيو ديربال تحبها إلى الحد الذي يحجب عنك الحقيقة وراء ستار من الأخيلة والأوهام

— أحبها ؟ لم أكن أحبها بذاتها ، ولكن كنت أحب الحب فيها . وإنها لم عاطفة أقوى من حب المرأة لأنها أحدثت في نفسي شعوراً غاية في الحدة والشدّة ، كان يلتهب في قلبي ويتأجج في سويدائي فأضيق به ذرعاً ، وكنت أبرز ذلك الشعور في شعري وقصصى التي فرجت عن نفسي وكشفت غمى وسرّت هوى . فكنت أشعر كمن أخرج جرة من بين أحشائه ، أفاهم أيها السياسي ؟ جرة من بين أحشائي

وفي تلك الليلة التي بدأت كأسمع ما تبدأ ليالي الغرام ، وأوشكت أن تنتهي كأسوأ ما تنتهي مآسى القطيعة صحت عزيمتي على مفارقة تلك المرأة فراقاً لا لقاء بعده ، فهضمت مترقفاً وارتديت ثيابي في هدوء

في تلك الفترة القصيرة التي سوف تشعرين فيها بالوحدة بعد انصرافي من هذا البيت ، وسوف تساورك الشكوك وتستأذن الفيرة على قلبك ، حاسبة أنني ما غادرت فراشك إلا لأنفس في أحضان غانية أهواها ، أو أتصيدا نكابة بك وانتقاماً منك . ولعل الدهن المريض أو الخيال السقيم يصور لك أنني ارتجلت تلك المسادة ، وابتكرتها وارتمت الشقاق وفتحت باب الشجار على مصراعيه لألمس لغضبتى عذراً ، ولأبرر موقفي منك إذا عاتبتني أو حاولت إرضائي . فأنت يا لور كظلي إن تركتك تبعثني ، وإن تبعثك تركتني ، تعملين خلاف ما أريد ، حباً في معاكستي

وكانت المرأة صامته . وجعلت نظرات الحنق تتطير من عينيها الغاضبتين تطاير الشرر عن ناره ، والنبل عن أوتاره ، وقد حاولت أن تتظاهر بعدم الفطنة إلى إشارتي وعدم الشعور بها ، فقلت لها : من ذا الذي أغراك يا صديقتي الخبيثة بأن تمثل هذا الدور المنكر أُمّمي ؟

ودنوت منها وهي لا تزال رابضة في فراشها وجلست على حافة السرير متلطفاً وقلت لها : — إن شئت بقيت ، وإن شئت ذهبت ، وأنا على الحالين راض عنك مادمت لا تحمليين لي بين جنبيك الناعمين حقداً ، فقالت :

— أجل لك حقداً ؟ وعلام ؟ ألا أنك تغادر بيتي وبيتك كما يغادر العشراء مضاجع المحظيات قبيل الفجر ليعودوا إلى بيوتهم قبل أن يفضحهم نور النهار ؟ ابق إن شئت ، ولكن على ألا تمسسنى بخير

قلت لك إننا كنا نعيش في قرية شاربونير ، إحدى ضواحي جرينوبل في منزل صغير جميل أعدته لنا مدام بوديه ، وهي امرأة من أهل البيوتات الكريمة قعد بها الدهر ، فانقطعت للرزق من سبيل إيجار الساكن المؤتثة على أجل طراز وأرشفه . وكنت أحب أن أطلعها على حقيقة أمرنا لعل أفوز منها بمشورة ناضجة لأنني لمحت في عينيها وميضاً يوشك أن يكون إفصاحاً بشفتها على من تلك المرأة المتقلبة المتحكمة ، ولكن سكوت الليل الذي كنا في آخره وحرمة الهدوء السائد على الكون وذكري الساعات القليلة التي قضيتها في جنب لورا ، وقد تكون من ألد وأمتع ساعات العمر ، دعتنى إلى التريث والصبر حتى يتنفس الصبح

فلما رأنتي لورا ألبس ثيابي قالت : أتدركني هكذا آخر الليل ؟ أو يطاوعك قلبك لأنني أفضيت إليك بمصارة قلبي وأطلعته على ما لم أطلع عليه أحداً قبلك من خلق الله ؟

فنظرت إليها فإذا بي أراها وقد تغيرت معالمها — وجه حسن الملامح حقاً ولكنه جامد التقاسيم ، كأنه قد صب في قالب من حديد ! فلست ترى به أدنى دليل على رقة العواطف أو أقل شاهد على ذكاء القريحة ، فكان هذا الجود في عيني أسوأ أثرآ وألم موقعا من مقايح الخلقة ومساوى التقاطيع فقلت لها : أجادة فيما تقولين يا لور ؟ أم هازلة

عابثة ، تبذلين القول الجليل لتستبقيني بجانبك حتى الصباح ، فأني أعلم أنه ليس شيء أشق على نفس المرأة من أن يهجرها عاشقها في مضجعتها ... ولعلك تخشين أن يتجدد حبك — إن كان في قلبك حب

التي لا أستحق أن أربط شراك نعليك ، فاعف عني
واغفر لي واصفح وراجعني تجدي أطوع من بنائك
لا أطيق هجرك ولا أستطيع الحياة بدونك ...

فوحقك يا صاحبي بكيت ، وانفجرت في قلبي
بنابيع الرحمة وأهويت عليها تقبيلاً وضماً وحملتها
بين يدي كالحملة الوداعة إلى الفراش الذي كان
لا يزال دافئاً من أثر رقادنا ، وما زالت ترتعش بين
ذراعي وتبكي وتتأوه ، وتئن وتحن وتشفق حتى
صالحتها وضممتها إلى صدرى وجففت دموعها براحتي
وقلت لها : عديني وعاهدني !

قالت : أعدك وأعاهدك على ما ترغب ! أنا
جارتك وأسيرتك وملك يمينك فاصنع بي ما شئت
وكن قاسياً فلا أستحق رحمتك

قلت : لا أطلب شيئاً من هذا ، بل عاهدني على
ألا تعبسي ولا تقطعي جبينك ، ولا تكرمي محاسن
وجهك ، ولا تستشيطي غضباً ، ولا يبحن جنونك
بعد الليلة ...

فقالت : أعدك وأعاهدك ، ثم نهضت وخلعت
عني ثيابي في عطف وحنان . وكانت لها طريقته في
تناول أردبتي حين ألبسها وحين أخلعها حتى لتشمر
أنها تهبها شيئاً من خبها لصاحبها . وتقدمت نحوى
وعلى وجهها نور البشر والطلاقة ، وفي ثنائله معنى
الصراحة والحفاوة والفرح بالصلح الذي تم فلم
شملنا بعد شتاتنا ، ثم أخرجت من قطرها قدحاً
فضيلاً كبيراً إغريق الصنعة وملاًته بما احتوته القناني
من النبيذ الأحمر وقبضت عليه بكفتي يديها وسقتني
ثم شربت وجلست أُمّامي وأخذنا بأطراف الحديث
فما لبثت أن وجدت في سهوله حديثها وعذوبته

بشر ، ولا تفأخني في أمر من الأمور التي أسقطناها
من حسابنا . ثم بدا بوجهها من آيات السخط
والضجر والتبرم ما لم أر مثله قط فجعلت لا أدري أى
مقدار من هذا السخط والاكتئاب كان فطرياً
غريزياً في خلقها وأى مقدار كان طارئاً لعله من
الملل حتى أزلت هذا الشك ، بأن تناولت من جانبها
طريحة من حرير ليون الفاخر ، كنت أهديتها إليها
فظننت أنها تريد أن تتلفع بها ، ولكن المفتونة
تناولتها بيد عنيفة خرقاء ، ومنزقت حواشيها كل
ممزق — فهضت من جانبها وقد علمت أن ما كان
يلوح على وجهها من دلائل السخط والاشمئزاز إنما
كان عن غريزة شر وشراسة ، ونحيزة غلظة وجفاء ،
وليس لسبب حادث أو علة طارئة

وقصدت إلى الباب أعالج رتاجه لأغادرها
خشية أن يزداد شرها فيحدث بيني وبينها مالا تحمد
منبته ويورث الندامة ، فانتفضت من الفراش وطارت
إلى ، وقبل أن أدرك ما تريد طوقت عنق بذراعيها
وهي تمجّش بالبكاء وقالت :

— كليان ! كليان ! بربك لا تتركني وحيدة .
عد إلىّ وأنا أعاهدك على أن أجعلك أسعد العشاق !
ألم تفهم يا غادر ؟ إننى أحبك من أعماق قلبي المحطم ،
ولكن كبريائي أقوى من حبي ، فلا أستطيع أن
أبوح لك أو أسترحك . هل أنت أعمى فلا ترى
شدة وجدى ولوعتى عليك ؟ ثم لم تلبث أن
ركعت وتشبّثت بساقى كما يتشبّث الطفل الخائف
بركبتى أمه ودفنت وجهها النادى في ثنايا معطفي
وقالت :

«ها أنا ذى أصرغ خدى في تراب رجليك ، وأنا

مصالحتنا نحتنى على الخروج بقية اليوم ، فترأى
السير ، ونسى رويداً نلتبس في أعماق الغاب
مكاناً قفراً وبقعة خالية ، لا يبصر بها عاذل ، ولا
يفشاها رقيب ؛ ثم نبتنى بين الأشجار اللآفاء
بجھلاً غامضاً خفياً ، نكون أول من أفضى إليه من
بنى الإنسان ، فناوى إليه ، ونطمئن فيه ، آمنين
ألا نصاب بثالث بضايقنا بدخوله بيننا وبين
الطبيعة . وفي تلك البقعة كانت عروس الطبيعة
تنجلي في أجل منظر وأحسن زينة ، وبخيل إلينا ،
أنها تجدد صورها وتبدل أشكالها وألوانها ، في كل
آن ولحظة . وإني لا أكتفك أنى في أوقات تلك
الخلوة كنت أتصور وجه معشوقتي كاحدى بدائع
الطبيعة ، يزيدك حسناً كلما زدته نظراً ، وكان
جمالها من تجدده متنقل للعين في صورشتى متعاقبة ،
فلا تسأله العين ولا يمله التأمل مهما طال النظر
إليه . وكان في جلال الأشجار وفي أنواع الرياح
والأزهار ما يملأ أعيننا جمالاً ، ولشدة ما ارتبطت
روحانا كننا ننطق بمبارات متحدة في اللفظ والمعنى .
وهذا توارد الحواطر الذى ييمته امتزاج الروحين
وإندماج الدهنين كقولى لها : إذا ضرب الدهر يالور
بينى وبينك ، وكان الفراق على الرغم منى منك ثم
افتقدتنى ، فالتمسنى يا نور عيني في هذا المكان
الذى نما فيه جينا وترعرع ، وازدهى زهر غرامنا وأينع
فصاحت في نشوة الفرح وقالت :

— صدقنى يا كلبان ، إننى صغت هذه الجملة
بألفاظها ومعانيها وحممت أن أقولها لك « فالتمسنى
يا نور عيني ... » فسبقتنى إليها ...

مر الربيع وتلاه الصيف وأقبل الخريف وولى

ما أزال سؤر ريبتي ونفى حثالة شكوكي ، وبعد هنيهة
أخذت تتبسط وتنطلق وتحلل من قيود الكلفة
السابقة إلى أن بلغت حدود الثروة والهذر
والاسترسال في سخافات القول وتفاهاته ، والمرء
منا نحن الشعراء يستملح هذه المفاتن من الأثنى
الجميلة إذا كان في حلاوة الفم الناطق بها ووميض
ثغره ورخامة صوته عوض عن تفاهته وقلة قيمته .
فأفرغنا أقداح الشراب مثنى وثلاث ومازلنا نشرب
حتى روينا . ثم رشفنا ما شاء الهوى من أقداح
الغرام ...

وقف القطار في محطة ليون ونادى المنادى بأن
مهلة الانتظار أربعون دقيقة كاملة وأن بالمحطة مقصفاً
للطاعمين والشاربين . فهضت ودعوت ديربال إلى
النزول فتعلمل في فراشه ثم تحمل الأعدار ، زاعماً
أنه يجب تلك المدينة ذات الدوى والطين تحت
أروقة الظلام وسرادق الظلماء ، فقلت له : إنك
تصف ليون منذ عشرين عاماً ، أما الآن فهي
عروس المدائن وبهجة العواصم ، ومسرح الفوائى ،
وقطب دائرة المغانى ، وما زلت به أغربه حتى نهض
إلى خوان القصف وعاد إلى مفاخرة شيطانه الأخضر
ثم عدنا إلى مقصورتنا في القطار قبل أن يدق ناقوس
الرحيل بفترة وجيزة . وعاد ديربال إلى حديثه بلسان
دافق وقلب خافق ، وما زالت عجلات القطار يسمع
صريرها وهي تقطع بنا مثات الأميال في عالم الليل
القديم ، فقال :

— لعلك لو زرت شاربونير تعرف جمال

ما يحيط بها من الحراج والغاب . وكانت لور عقيب

عادة سابقة : كم الساعة وهل تمطر السماء اليوم ؟
وهل تناولت غداءك ، وماذا أعددت للمفاجآت ؟
فابتسمت لزوجته التي كانت مثال الوقار والحسن
الدابل ، فلم ترد على ابتسامي بمثله ، بل ألقت على
زوجها نظرة كطعنة الخنجر بل أحد ، ثم قالت : ضع
حملك الجميل ها هنا أيها الشاعر الطريف ، ولا تكبد
نفسك مشقة الصعود به ، فهذه وظيفة تؤديها الوصيصة
فأطعمها وقلت وأنا على أحر من الجمر للقاء لور:
حتى أجيب على أسئلة بملك المحترم !

فقلت : لا عليك يا سيدي ! فإن للقردة
والسنانير لغات كما لشعوب البشر ، وإن لضفادع
هولندا نقيقاً أشبه بأصوات بعض الرجال ،
ولملك لا تعلم أن الاسم الذي يحمله يدل على... (١)

(١) إشارة إلى اسم الجحش وفي أسماء الفرنجة كثير من
هذه الغرائب

وجاء بعده الشتاء ، وكنا قد هجرنا الغابة وموطننا
الخنق ، وانقطعنا عن الذهاب إليه بضعة أسابيع .
وعدت يوماً من جرينوبل إلى شابونير قبيل الظهر
وقصدت إلى عش غرامنا في الثوى الذي نقطنه ،
وكنت أحمل بين يدي هدايا ونحفاً وأزهاراً للورا
كمادتي كلما وجدت رزقاً في خزائن باعة الكتب
الملاعين ، أو وصل إلى يدي نقود من دخل أي التي
تجد وتكد في حرت مزرعتنا في الهوت مارن ، أو
فاضت بعض حقوق التأليف المسرحي من بين أنامل
هرتز ذلك اليهودي الشحيح الذي كان يدير ملعب
سليستان ، ويمثل بعض قطعي على خشبة مسرحه .
وفي ذلك اليوم الذي لا أنساه تجمعت لدى أرزاق
من مصادر ثلاثة ، ففرحت بها وحمات الهدايا إلى لور
التي تخيلتها تنتظرني كمادتها متكئة على إطار النافذة
لتحييني عن كئيب ، إذا ما دنوت من سور الدار ،
وكنت أشعر بالشباب والعافية ، وأحس دفء
الحياة التي ينفخ الحب في نارها . وأعتقد أنني
لست وحيداً في هذه الدنيا ولا شقيفاً ، وما أنا
بحاجة إلى إيناس الأصدقاء والخلان ، ما دامت
هذه المرأة تحبني . فلما دنوت من الباب رأيت
مدام بوديه وزوجها يتهاوسان على صورة لم أعدها
وكان الإشفاق والحنان باديين على وجه المرأة ،
والسخف والحبث مرسومين على سحنة زوجها .
كان ذا وجه مُذْكَر قبيح ، ملفف اللحية ، كئيب
المارضين ، ذا صوت غليظ أجش . وكان أهل
الضاحية يسمونه الصنم ، والقطب النجمد الشمالي ،
وبرذون غازار (١) . فكان أول ما قاله لي على غير

(١) كلمة Bandet وهي اسم الرجل معناها جحش وهو
الحمار الصغير

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى
العصرلوسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات
نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات
كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين
موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزئين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

هاشة باشة ؟ أيقبض نزول البرد نفسك حتى هذا الوجوم ؟

فقلت : إن الأنسة خرجت منذ الضحى ولم تمد ، فأخشى أن عنتاً يصيبها لدى عودتها ، لأنها لم تتخذ لهذا الحبوب المفاجئ عدته
فقلت : الأنسة ؟ ابتنتك ؟

قلت : كلا : الأنسة لور صديقتك فكنت أصعق ، لا من وقع الخبر ، ولكن من شامة بهيمة الأنعام السيور^(١) بوديه ، فقد أدركت الآن سر تهكمه وسؤاله عن الساعة والطر والنداء

فقلت لدام بوديه وقد لمحت في عينها دليل الشفقة على : وبم تشيرين على في هذا الموقف الحرج ؟

فقلت : إما أن تنتظرها وإما أن تبحث عنها ، فقد رأتها جانيت تسلك السبيل المؤدى إلى خان الجواد الأبيض »

فقلت : الجواد الأبيض ... آه ! إنها ذهبت إلى الغابة التي تحلوها أحياناً ، ونهضت أقصد إلى الباب فاستمهلتنى مدام بوديه حتى أحضرت مظلة بالية أتقى بها البرد الذى ما زال مستمراً على شدته

ولما بلغت خان الجواد الأبيض واستدردت فى الطريق الواسلة إلى الغابة كان الثلج إذ ذاك يتساقط فى قضاء الجو ، والريح تصرخ وتغول ، ومصاريع النوافذ يشتد اهتزازها ويرتفع صريرها ، وكل شيء صادف عيني وصافح أذنى يسنح بالشؤم طائرته ، ويجرى بالنحس فآله . وكنت تقطع الطريق فى أيام الصحو فى ساعة ، فابالى اليوم والريح تضرب

(١) يقال سيور للرجل الذى لا يسوده التكلم بلفظ موسيو

فضحكت . ولكنها لم تضحك واستمرت فى تأنيب زوجها بالمجاز والتورية والكتاية وأسلوب الحكيم « وعندى أن كل إنسان لا يضبط منطقته وليس له على لسانه سلطان يصرفه فى وجوه الصواب من القول ، ويجريه على أصول الحديث المشروعة وقواعده المألوفة فإنما هو مقلد لأحد أصناف تلك الأنعام ، يحكى عجمتها ، وعلى هذا القياس يكون الثرثار المهدار كالقرد والبيغاء ... »

وقد شرب زوجها (بوديه) هذه الكأس حتى الثمالة ، ولم ينبس بينت شفة !

فلم أفهم طبعاً سبب هذه الحلة من المرأة المؤدبة على زوجها الزنيم ، وإن كنت عهدتها لا تقيم له وزناً ، وتعاشره على حساب الماضى ، وقد ولى الشباب وذوى الجمال وهذأت نائرة الهوى فى نفسها واقتنعت أنها لن تكون فتنة للعالمين ، فأخلق بها أن تخلد إلى الراحة بجوار مذود هذا الذى اسمه وصوته من أنكر الأسماء والأصوات

ثم دعتنى السيدة للجلوس وأمرت الخادم أن تخفف عني عبء الهدايا التى أحملها . وكان المطر بدأ يهطل ثقيلًا ثم انهمال البرد بسرعة فائقة ، فعمجت من تكهن « الجحش » بالمطر وهنأت نفسى بيلوغ الدار قبل تساقطه ، ومنيتها بالدفع فى الركن الركين حيث تنتظرني لور بالطبقة العليا من الدار

ولكن مدام بوديه اكفهر وجهها وتجهم ، وكما زاد انهمار البرد زاد وجهها تقطباً وعوساً . أما زوجها فكان قد ولى الأدبار بعد أن عبث بلحيته الدكنة الكثة بأنامله الطويلة القذرة ، فدنت مدام بوديه فى رفق ونظرت إلى ، فقلت لها : لم أراك مقطبة الجبين على غير عادتك وقد عهدتك أبداً

وجهي كأنما تريد صدى وردى ، وتملاً فراغ المظلة فتحطم أسلاكها الدقيقة وتمزق قماشها البالية ، وتجذب بأطراف ردائي كأن لها عندي ثأراً ، فرأيت عجلة لبان يقصد إلى المزارع النائية ، وهو بلا ريب يمر بالغابة فاقترحت عليه أن يسمح لي بمصاحبتة لقاء الأجر الذي يطلبه ، فتلطف وقبل ؛ وظننت أننا نبأخ الغابة في نصف الوقت الذي يقتضيه الراجل ، ولم يكن في طاقتي أن أحادثه أو أسأله واكتفيت بأن تسلفت المركبة وتخلصت من المظلة مستهدفاً لأخطار الطريق ، فإنها لم تكن تغني حيال هذه العاصفة الهوجاء . ولم نكد نخرج إلى العراء حتى ارتفعت الريح وهبت علينا زوامة ثلجية أعشت أعين الجواد وقائده فلم يبصرا شيئاً ألبتة ، واختفى عليهما الطريق وسدت في وجههما المذاهب ، وغابت الكائنات أجمع ، وكل شيء في ضبابية كثيفة صفراء جعلت شظايا الثلج خلالها تتساقط وتهاوى ، واختلطت الأرض بالسماء ، وسار الجواد بالعربة على راسه وكما شاء ، لا وجهة ولا قصد ، وفي كل لحظة يعثر في كتيب من الجليد ، أو تنفرز حوافره في جحر ، فكانت العربة لا تزال تقلب وتكب ، ووجدت أنني بالرغم من انقضاء نصف ساعة أو أكثر لم نصل إلى الغابة ؛ ومضى نصف آخر وما لاح لنا شبح الغابة فصممت على الانطلاق على أقدامي مستهدياً بالإلهام الرباني ، فإن الله أكرم من أن يتخلى عني في هذا الموقف الحرج . ونفجت اللبان بما أطلق لسانه بالشكر فنهاني عن مطاوعة الوهم وأذرنى بالموت المؤكد . فلم أعباً بانذاره وترجلت أخوض غمار الثلج بارادة قوية وعزيمة مدهشة . كل هذا والعاصفة في أشدها لم تفتر ولم تسترح والجو مربد الجوانب مكفهر النواحي لم يستمد أدنى شيء من صفائه ، وكان الكلال قد

دب في وسري إلى الآن والإعياء وأقبل العرق ، نعم العرق يتحدر من جيبني قطرات كباراً بالرغم من أنني كنت لا أبرح مدفوناً إلى ساقى في الجليد التراكم . وأخيراً لاح على بعد شبح أسود ، فتوجهت نحوه حتى إذا دنوت منه ألفتته الغاية المشوذة والغابة المقصودة فتنفست وحمدت الله الذي قرب البعيد وهون العسير ، ثم سرت بمحاذاة صف من أشجار السرور راجياً أن أعثر بالمسلك المؤدى إلى المستقر الذي كنا نلجأ إليه . وما لبثت أن أصبته فأخذت فيه وأمعنت في ظلمات الغابة ، وكان الشتاء قد جرد الشجر من ملاحفه ، ولكن جوف الغابة بقي من عبث الرياح مصوناً

فاسترددت طرفاً من نشاطي وميعتي واستجتم لي بمض جأشي وطمأنينتي

فقد كان أخوف ما أخافه أن تفاجئ العاصفة تلك الفتاة المسكينة فترعبها وترهقها ، حتى إذا أيأسها الرعب سقطت مفشياً عليها ولا تزال كذلك حتى تدفن بالحياة تحت ركام الجليد . ولم يخطر ببالى أن طائفاً من الشرداء ، أو وحشاً في صورة إنسان من المجانين أو طرداء الشرطة يفجأها فيفتربها

وما إن بانغت السكان المهود حتى رأيت منظرأ انخلع له قلبي ! فقد رأيت لور ... في أحضان رجل بمأمن من الثلج والجليد ، لأن جوف الغابة كان مصوناً من عبث الرياح وحصيناً من عبث العاصفة . كانت الناعسة مجتمعة بين ذراعى الرجل ومصدره كما كانت تطمئن إلى ذراعى وصدرى

وعند ما دنوت من مرقداهما نهض الرجل وقال بأعلى صوته : من أنت وماذا تريد ؟ فتنهت المرأة ورأيتي فجذعت وارتفعت وزابلها الرجاء وامتلكها اليأس ، ثم استردت شجاعتها وعادت إليها فخفا

بلغت أول كوخ جربت إلى النافذة وطفقت أدق على بابها بيدي . فلم تكن إلا هنيهة حتى فتح مصراعها الخشبي وأخرج شيخ مسن لحيته البيضاء فسألته المأوى حتى أستريح من وعشاء التنب وشقة الخوض في الجليد . فدعاني إلى كوخه وأكرم مثواي ، وكنت في شغل شاغل فلا أشعر بالبرد ولا بالقرى ، ولكنني كنت متعباً فأعدت لي ربة الدار فراشاً في إحدى الغرف فقضيت ليلة أرق وقلق . وفي الصباح سمعنا أجراس كنيسة القرية تدق دقات الفزع ، فلم تكن وفاة عادية ولا صلاة ولا زواجاً . فخرج الشيخ فيمن هلعوا فهرعوا ليقعوا على الخبر ، ثم عاد يخبرني بأن حرس الغابات عثروا بقتيلين في الغابة امرأة ورجل ، وأن أحدهما قتل صاحبه ثم انتحر ، والبحث جار عمن يرفع القناع عن سر هذه المأساة

وعند ما نطق ديربال بهذه الكلامة تذكرت الحقيقة الدبلوماسية ، تلك التي أنقلها معي فقد نسيته في مقصف ديجون عند ما كان الشاعر المغموم يتجرع عفريته الأخضر . إن أوامر كي دورسي^(١) تحتم إن كنا على سفر ألا تفارق حقيقتنا التي تحتوى رسائلنا يدنا وعيننا لحظة واحدة ، فأنسانها شيطان المرأة الخؤون . وقد كنت أفاخر بقوة ذاكرتي وقد صدق ديربال في قائلته « ليس من شر في العالم أو أذى أو ظلامة إلا في رقاب النساء أنهما ووزرها ، وعلى رؤوسهن تبعتهما ومسؤوليتهما » ففارقته وعدت إلى ديجون أبحث عن حقيقتي وقطعت حديثه ولم أعد أراه . ولكنني فطنت إلى أن المرأة التي أحباها وحن بها كانت أحد القتيلين اللذين دقت عليهما نواقيس القرية

محمد لطفي جمعة

ونجورها ووقفت كاللبوءة التي تدفع الأذى عن أشبالها . وقالت للرجل :

اسكت أنت ولا تتكلم فهذا زوجي

فرفع الرجل قبعته ، فقلت له :

استبق غطاء رأسك ياسيدي فليس المقام مقام

احترام .

فقلت : قبل كل شيء لا يحملك الفيظ على الشر قبل أن أشرح لك حقيقة الحال . ثم شرقت بدموعها وسالت عبراتها على خديها وأقبلت تسير نحوى وهي تقول : إنه رفيق صباي وأليف وحدتي قبل أن تمنحني السماء نعمة التعرف إليك

وفي تلك اللحظة انقلبت الدنيا في عيني بلون الدماء ، وهممت أن أتناول عنقها بيدي فأقضى على حياتها في طرفة عين ثم أحطم رأسها بحجر . ولم أكن أبالي بالرجل الواقف أمامي ، ولكن الله أنزل السكينة على قلبي وقلت : إنك لست زوجتي كما زعمت لهذا الأحمق لتزيدني حقارة في نظره وتشهديه العبث بشرف القران في سبيل حبه . لقد التقطتك من الطريق ، وقد انتهى ما كان بيننا . وإنى لا آبي أن أقتلك إلا لأنك أخط وأدنا وأرخص من أن أدفع ثمن دمك بساعة في السجن أو بنجر في جريدة ، فأسجل الغفلة على نفسي وأهبك منحة الاستشهاد والتضحية . لن أعود إلى البيت الذي عاشرتك فيه ولعلك تخلصين إلى هذا القديم بأكثر مما أخلصت لي . وعدت أدراجي لا ألقى على شيء

وفي هذه الأثناء كانت الماصفة قد سكنت والفيوم تقشمت ، وامتد أماي على مدى البصر سهل مغشى بالجليد ، وقد صفا أديم السماء ولاحت الجوزاء لناظري ، فأبصرت على كئيب منى قرية صغيرة فيها أربعة منازل أو خمسة فأخذت سمتي إليها حتى إذا

(١) مقر وزارة الخارجية الفرنسية بباريس